﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيانِ حالِ المُعَوِّقين ناسب بيانُ أوصافِهم

لَمّا بيَّنتِ الآيات السّابقة حالَ المنافقين في التَّعويق عن الجهادِ مع رسولِ اللّهِ ﷺ والمؤمنين بسببِ ضعفِ إيمانِهم باللّه تعالى؛ ناسبَ بعدَ ذلك بيانُ نعوتِهم وصفاتِهم في التَّعامل مع المؤمنين، فجمعَ لهم وصفين في حال الخوفِ وحالِ الأمن، فهُم يخاطبونَ المُسْلِمينَ بِأَلْسِنَةٍ ذَرِبَةٍ قاطِعَةٍ فَصيحَةٍ بَعْدَ أنْ كانَتْ عِنْدَ الخَوْفِ في غايَةِ اللَّجْلَجَةِ، ولَمّا كانَ العَمَلُ لا يَصِحُّ بِدونِ الإيمانِ؛ سَبَّبَ عَنْ ذَلِكَ حبوطَ أعْمالِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشِحَّةً﴾: (شحّ) الأصْلُ فيهِ المَنْعُ، ثُمَّ يَكونُ مَنْعًا مَعَ حِرْصٍ، ومِنْ ذَلِكَ الشُّحُّ، وهوَ البُخْلُ مَعَ حِرْصٍ، ويُقالُ: تَشاحَّ الرَّجُلانِ عَلَى الأمْرِ، إذا أرادَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما الفَوْزَ بِهِ، ومَنَعَهُ مِنْ صاحِبِهِ[2]، وقَدْ شَحَحْتَ تَشُحُّ، وشَحِحْتَ بِالكَسْرِ، ورَجُلٌ شَحيحٌ وشَحاحٌ مِنْ قومٍ أشِحَّةٍ وأشِحّاءَ وشِحاحٍ[3]، والمَعْنَى المَحْوَرِيُّ: تماسُكُ ظاهرِ الشَّيءِ العريضِ تماسُكًا شَديدًا جافًّا لا يَنْفَتِحُ، ولا يَنْفُذُ فيه أو مِنْهُ شيءٌ، فالمَعْنَى هَهُنا: أنَّهُم شِدادٌ جُفاةٌ غِلاظٌ عَلَيْكُم معَ أنَّهُم في غايَةِ الخَوَرِ في ساعةِ الجِدِّ، وبِهَذا تَتَّضِحُ المقابلةُ بَينَ حالتَيهم في الآيةِ، أمّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 314 - 315.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شحح).

الشُّحُّ بمعنَى البُخْلِ؛ فقدَ وصَفَهُم به في آخرِ الآيةِ: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾[1]، وغالبُ المُفَسِّرين على أنَّ المُرادَ بالشُّحِّ هَهُنا البخلُ بالمالِ إنفاقًا أو غنيمةً، وبالنَّفْسِ قتالًا وجهادًا[2].

2) ﴿يُغْشَىٰ﴾: (غشى) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشِّيه، والغِشاءُ: الغِطاءُ، والغاشيَةُ: القيامَةُ؛ لأنَّها تَغْشَى الخَلْقَ بإفْزاعِها، ويُقالُ: رَماهُ اللّه بِغاشيَة، وهوَ داءٌ يَأْخُذُ كَأنَّهُ يَغْشاهُ، والغِشْيانُ: غِشْيانُ الرَّجُلِ المَرْأةَ[3]، وغُشيَ غَشْيًا وغَشَيانًا: أُغْمِيَ، فهو مَغْشيٌّ عليه، والاسم: الغَشْيَةُ، وغَشَّى اللّهُ على بَصَرِهِ تَغْشيَةً، وأغْشَى وغَشيَهُ الأمرُ، وتَغَشّاهُ، وأغْشَيْتُه إيّاهُ، وغَشَّيْتُه[4]، والمَعْنَى المحْوَريُّ: تَغطّي الشَّيءِ بِكَثيفٍ يَعُمُّهُ[5]، وغُشيَ على فُلانٍ؛ إذا نابَهُ ما غَشيَ فَهْمَهُ، قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[6]، والمَعْنَى: يَنْظُرونَ نَظَرًا كائنًا كَنَظَرِ المَغْشيِّ عليه مِن مُعالَجَةِ سَكَراتِ المَوْتِ حَذَرًا وخَورًا، ولِواذًا بِكَ[7].

3) ﴿سَلَقُوكُم﴾: (سلق) تدور حول مَعْنَى تأثُّرِ باطِنِ الشَّيءِ بِحِدَّةٍ تنالُ ظاهِرَهُ، فتُذْهِبُ صلادَتَه، ويَلينُ[8]، وسَلَقْتُ اللَّحْمَ عنِ العَظْمِ: قَشَرْتُه، ورَكِبْتُ الدّابةَ، فَسَلَقَتْني؛ إذا سَحَجَتْ باطِنَ الفَخِذَيْنِ والأليةِ[9]، والمرادُ هَهُنا: ما هوَ بِمَعْنَى صاح، فالسَّلْقُ: شِدَّةُ الصَّوْتِ، وسَلَق لُغَةٌ في صَلَق، أيْ: صاحَ، وروِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قالَ: (لَيْسَ مِنّا مَنْ حَلَقَ، ومَنْ سَلَقَ، ومَنْ خَرَقَ)[10]، يَعْني: رفَعَ صَوْتَهُ عِنْدَ مَوْتِ إنسان أو عِنْدَ المُصيبَةِ، ومِنَ السَّلْقِ رَفْعُ الصَّوْتِ، قولُهم: لِسانٌ مِسْلَقٌ: حديدٌ ذَلِقٌ، وقوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أي: بالَغوا فيكُمْ بِالكَلامِ، وخاصَموكم في الغَنيمَةِ أشَدَّ مخاصمةٍ وأبْلَغَها، وآذوكُم بِالكَلامِ في الأمر بِألْسِنةٍ سَليطةٍ ذَرِبَة[11].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شحح).
(2) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 385.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غشي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غشى).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (غشي).
(7) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 398.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سلق).
(9) الزمخشري، أساس البلاغة: (سلق).
(10) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الجنائز، باب في النوح، حديث رقم: (3132).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (سلق).

4) ﴿حِدَادٍ﴾: (حدّ) أصلان: الأوَّلُ المَنْعُ، والثّاني طَرَفُ الشَّيْءِ، فالحَدُّ: الحاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وفُلانٌ مَحْدودٌ؛ إذا كانَ مَمْنوعًا[1]، وحَدَّ الشيءَ مِنْ غَيْرِهِ يَحُدُّه حَدًّا، وحدَّدَه: مَيَّزَهُ، وحَدُّ كُلِّ شيءٍ: مُنْتَهاهُ[2]، والحَديدُ: هَذا الجَوْهَرُ المَعْروفُ؛ لأنَّه مَنيعٌ، وحَدَّ السَّيفُ يَحِدُّ حِدَّة واحْتَدَّ، فَهوَ حادٌّ، وسيوفٌ حِدادٌ وألْسِنَةٌ حِدادٌ، ورَجُلٌ حَديدٌ وحُدادٌ مِنْ قَوْمٍ أحِدّاءَ، وأحِدَّةٍ وحِدادٍ: يَكونُ في اللَّسَنِ والفَهمِ والغَضَبِ[3]، ويُعَبَّرُ عنِ الحَديدِ بالشَّيْءِ المُتَناهي في بابِه كقولِه تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: 22]، أي: ثابِتٌ نافِذٌ، وفُلانٌ حديدُ الفَهْمِ، أي: ذَكيُّ القلبِ صافي الذِّهْنِ، وأصْلُها مِنَ الحَديدِ؛ لأنَّهُ تَثْبُتُ بِهِ الأشياءُ، وفيهِ: لسانٌ حديدٌ، أي: مُصْلَتٌ كَحِدَّةِ السَّيْفِ[4]، والمرادُ بالألْسِنَةِ الحداد أنَّها ألسنةٌ ذَرِبَةٌ قاطِعَةٌ فَصيحَةٌ بَعْدَ أنْ كانَتْ عِنْدَ الخَوْفِ في غايَةِ اللَّجْلَجَةِ لا تَقْدِرُ عَلى الحَرَكَةِ مِن قِلَّةِ الرّيقِ، ويبسِ الشِّفاهِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المنافقون مَجْمعُ صفات السّوءِ ومَنبعُ خِلالِ الشَّرِّ

بيَّنتِ الآيةُ الكريمةُ مجموعةً من صفاتِ المُنافقينَ تتَّسمُ بالقُبحِ والرَّداءةِ، فَهُم قومٌ بُخَلاءُ أشِحَّةٌ بِأنْفُسِهِم وأمْوالِهم وجميعِ أحْوالِهم، لا يُقَدِّمون منفعةً للمُؤمنين، وهم جُبناءُ، فإذا ظهرَتْ أماراتُ الخَوفِ مِنَ العَدوِّ في بدءِ المَعركةِ والقِتالِ؛ لاذوا بِكَ أيُّها النَّبيُّ، ورَأيْتَهُم ينْظُرونَ إليكَ، كَما يَنْظُرُ المغشيُّ عَليه منْ مُعالجةِ سَكَراتِ الموتِ، حَذَرًا وخَورًا وضَعْفًا، فَإذا ذَهَبَ الخوفُ؛ بَدَتْ مِنْهُم سَلاطةُ اللِّسانِ، وتَفاخَروا بِأنَّهُم أهلُ النَّجْدةِ والشَّجاعَةِ، وهُم في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حدد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حدد).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حدد).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

ذلكَ كاذِبونَ مُراوِغونَ، فقدْ جَمَعوا بينَ الجُبنِ والكَذِبِ ونضوبِ الخيرِ، وقد كَشَفَتِ الآيةُ عنْ سَبَبِ مرضِهِم الشَّديدِ الَّذي ينخرُ العظامَ، وهوَ أنَّهُم فاقِدو الإيمانِ، فَهُم غيرُ مُصَدِّقينَ باللّهِ ورسولِه ﷺ، وإنْ لَمْ يُظهروا الكفرَ لَفْظًا، فأبطلَ اللّهُ أعْمالَهم الَّتي كانوا يأتونَ بِها في الظّاهِرِ معَ المُسْلِمينَ، وكانَ ذلكَ الإحباطُ أو الإبطالُ لِثمرةِ الأعمالِ سَهْلًا هَيِّنًا عِندَ اللّهِ تعالى، بِمُقْتَضى عَدْلِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ استعمال مفردةِ الشُّحِّ:

الشُّحُّ هوَ شدَّةُ البخلِ مع شدَّةِ الحرصِ وهوَ طبعٌ متأصِّلٌ في النَّفْسِ

استعمل النظم الكريم مفردة الشُّحِّ دون البخلِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾؛ وذلك لأنَّ الشُّحَّ هوَ البُخْلُ مَعَ شدَّة الحِرْصِ، وهوَ يتميَّزُ عنِ البُخلِ بالشِّدَّةِ والحرصِ، وكونه عادةً وطبعًا مُتَأصِّلًا في النُّفوسِ لا تَكادُ تحيدُ عنه، ويشملُ المالَ وغيرَه من الخيرِ والمعروفِ[1]، وقدْ دلَّ التَّعبيرُ بِها على أنَّهم بُخَلاءُ بِالنَّفَقَةِ والنُّصْرَةِ، وبِأنْفُسِهِمْ، أو بِالغَنيمَةِ عِنْدَ القَسْمِ، وقيلَ: بِكُلِّ ما فيهِ مَنفعَةٌ لِلمؤمنين.

دلالةُ التَّعْبيرِ بِالجَمْعِ ﴿أَشِحَّةً﴾ دونَ (أشِحّاءَ):

خطرُ النِّفاقِ وإن بدا كثيرًا لكنَّه بعونِ اللهِ ضعيفٌ لا يُخشى

آثرَ النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بجمعِ ﴿أَشِحَّةً﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، وهوَ جَمْعُ (شَحيح) عَلى غَيْرِ القياسِ؛ إذْ قياسُ (فَعيلٍ) الوَصْفُ المُضَعَّفُ عَيْنُهُ ولامُهُ أنْ يُجْمَعَ عَلى (أفْعِلاءَ) كَضَنينٍ وأضِنّاءَ، وخَليلٍ وأخِلّاءَ، فالقياسُ أشِحّاءُ، وهو مَسْموعٌ أيْضًا، وذلك لأنَّها جمعُ قِلَّةٍ، في مقابلِ (أشِحّاءَ) الَّتي هيَ جَمْعُ كثرةٍ، وذلكَ للدلالةِ عَلى قِلَّةِ خطرِ هذهِ الفئةِ في الأثرِ، حتّى وإنْ كانوا كثْرَةً في العددِ، وفي ذلكَ طمأنَةٌ للمسلمينَ وتثبيتٌ لَهُم بأنَّ هؤلاءِ المنافقينَ

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 109.

المخادعينَ ليسوا ذوي خطرٍ على وجودِهم، وأنَّ اللهَ ناصرُ عباده على هؤلاءِ الأحزابِ الَّذينَ تآلَبوا عَليهم، وأحْدَقوا بهم من كُلِّ جانبٍ يَبْغونَ هلاكَهم واستئْصالَهم.

بلاغةُ مجيءِ الحالِ اسمًا لا جملة:

الاسميَّةُ الحاليَّةُ أفادَت ثباتَ الشُّحِ ودوامَه في نفوسِ المنافقينَ

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿أَشِحَّةً﴾ بالصّيغةِ الاسميَّةِ الحاليَّةِ، دونَ التَّعبيرِ بالصّيغةِ الفِعْليَّةِ (يَشِحّون)؛ للدلالةِ على ثباتِ صِفَةِ الشُّحِّ في نفوسِ هؤلاءِ المنافقينَ ودوامِها وتأصُّلِها، وقد ذهب قومٌ إلى أنَّها حالٌ من فاعِلِ ﴿يَأْتُونَ﴾ عَلى مَعْنى: (تَرَكوا الإتْيانَ أشِحَّةً)، وقالَ آخرون: هيَ منصوبةٌ عَلى الذَّمِّ، وقيلَ: عَلى الحالِ من ضَميرِ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أوْ من ضَميرِ يُعَوِّقونَ مُضْمَرًا، وقيلَ: مِنَ ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ أوْ مِنَ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾[1]، وعلى أيٍّ هذه التقديراتِ فإنَّ المرادَ إثباتُ الشُّحِّ ودوامُه في نفوسِ المنافقينَ.

نكتةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿أَشِحَّةً﴾:

تصويرُ حقيقةِ شُحِّ المُنافِقينَ وأنَّه بلغَ ما لا يُتصوَّر من الحقدِ الدَّفين

تعدَّدتْ أقوالُ المفسِّرين والمعربين في تقديرِ متعلِّقِ كلمةِ ﴿أَشِحَّةً﴾، فقيل: بخلاءُ عليكم بالنَّفَقَةِ والنُّصْرَةِ، وقيلَ: بأنْفُسِهِمْ، وقيلَ: بالغَنيمَةِ عِنْدَ القَسمِ، وقيلَ: بكُلِّ ما فيهِ مَنفَعَةٌ لَكُمْ، فالمفعولُ محذوفٌ؛ ليتناولَ كلَّ ما يتناولُهُ البُخْلُ، وهوَ أحسنُ من التصريح بالمفعولِ؛ لتذهبَ النَّفْسُ في تقديره كلَّ مذهبٍ؛ بيانًا لخِسَّةِ هؤلاءِ المُنافقينَ وإظهارًا لسوءِ خُلُقِهم، وهوَ كذلكَ أبلغُ في تصويرِ طبيعةِ الشُّحِّ في نفوسِ هؤلاءِ، وحِقْدِهم على المؤمنينَ حِقدًا يَجْعَلُهم يَضِنّونَ عليهم بكلِّ ما فيه خيرٌ ومنْفَعَةٌ لهم، سواء أكان ذلكَ نُصرةً أم غنيمةً ونفقةً أم غيرَ ذلكَ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 464.

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 134.

بلاغةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

مَنْعُ المنافقينَ ما في وُسْعِهِمْ مِنَ المالِ أوِ المَعونَةِ

عَدَّى النَّظْمُ الحكيمُ الشُّحَّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، بحرف الجرِّ (على)؛ ذلك أن الشُّحَّ يَتَعَدّى إلى الشَّيْءِ المَبْخولِ بِهِ بالباءِ وبِـ(عَلى)، قالَ تَعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، ويَتَعَدّى إلى الشَّخْصِ المَمْنوعِ بِـ(عَلى) أيْضًا؛ لِما في الشُّحِّ مِن مَعْنى الاعْتِداءِ، فَتَعْدِيَتُهُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ مِنَ التَّعْدِيَةِ إلى المَمْنوعِ، والمَعْنى: يَمْنَعونَكم ما في وُسْعِهِمْ مِنَ المالِ أوِ المَعونَةِ، أيْ: إذا حَضَروا البَأْسَ؛ مَنَعوا فائِدَتَهم عَنِ المُسْلِمينَ ما اسْتَطاعوا، ومِن ذَلِكَ شُحُّهم بِأنْفُسِهِمْ وكُلِّ ما يُشَحُّ بِهِ، ويَجوزُ جَعْلُ (عَلى) هُنا مُتَعَدِّيَةً إلى المَضْنونِ بِهِ، والمَعْنى: أشِحَّةً في الظّاهِرِ، أيْ: يُظْهِرونَ أنَّهم يَخافونَ عَلَيْكُمُ الهَلاكَ، فَيَصُدّونَكم عَنِ القِتالِ، ويُحَسِّنونَ إلَيْكُمُ الرُّجوعَ عَنِ القِتالِ[1].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الشُّحُّ متفرِّع عن الامتناعِ عن إتيانِ البأس

فرَّع النَّظْمُ الحكيمُ بين قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بفاءِ التَّفْريعِ؛ لِتَرَتُّبِ ما بَعْدَها عَلَى ما قَبْلَها، فهيَ تَفريعٌ عَلى وصْفِهِمْ بِالشُّحِّ عَلى المُسْلِمينَ[2]، فقدْ ترتَّبَ عنْ شُحِّهم بالمالِ والنَّفْسِ سيطرةُ الخوفِ على قلوبِهم؛ وذلكَ لأنَّهم لمْ يَذوقوا للإيمانِ طَعْمًا، فكانتْ قلوبُهم خاويةً فارغةً مِنْ كُلِّ يقينٍ مِنْ شأنِه أنْ يُرْسيَ فيها الثَّباتَ والإقدامَ.

فائدةُ التَّعْبيرِ بِأداةِ (إذا) دونَ (إنْ):

تصويرُ شدَّةِ هلعِ المنافِقينَ وما أصابَهُم من يأسٍ قاتلٍ

آثر النظم الكريمُ استعمالَ أداة (إذا) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ دون (إن)؛ وذلكَ لأنَّ (إذا) تفيدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 296.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 296.

القطعَ بوقوعِ شرطِها غالبًا، أمّا (إنْ)؛ فإنَّها إنَّما تُستعمَلُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه، الَّذي يحتملُ الشَّكَّ، وفي ذلكَ تصويرٌ دقيقٌ لهذا الظَّرْفِ الخطيرِ الَّذي واجَهَهُ المسلمونَ في غَزْوَةِ الأحزابِ؛ إذْ أحدقَ بِهِم المشركونَ واليهود من كُلِّ جانبٍ، كما أنَّه يشيرُ إلى شدَّةِ هَلَعِ المنافقينَ حين جاء الخوف، وما وقعَ في قلوبِهم من يأسٍ قاتلٍ يُصَوِّرُ لَهُم أنَّهُم مقتولونَ - لا محالةَ - وفيه أيضًا بيانٌ لقلَّةِ إيمانِهم وشدَّةِ قنوطِهم، فَهُم بسببِ فقدِهم للإيمانِ مَهْزومونَ عَقْليًّا، ومأزومونَ نفْسيًّا، حتَّى قبل وقوعِ المعركَةِ.

بَلاغَةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

تمكُّنُ الخوفِ من قُلوبِ المنافقين كتمكُّنِ الأسدِ من فريسته

شبَّه النَّظمُ الكريم وقوعَ الخوفِ في القلوبِ وحصوله فيها في قولِ الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ بمجيءِ شخصٍ، ثم حذف المشبَّه، وصرَّح بالمُشبَّه به، واشتقَّ من المجيءِ فِعلَ ﴿جَآءَ﴾ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وتكمن بلاغتُها في تأكيد وقوعِ الخوفِ في القلوبِ، وتمكُّنه منها، كتمكُّنِ الأسد من فريسته.

بَلاغَةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تصويرُ الخوفِ بصورةِ كائنٍ حيٍّ مُخيفٍ يتحرَّكُ ويجيءُ

في استعمالِ مفردةِ الخوفِ في قولِ الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ مَجازٌ؛ لأنَّ فيه تَجْسيدًا للخوفِ، كَأَنَّهُ شَيءٌ عَيْنيٌّ شاخِصٌ للأبصارِ، ففيه تشبيهُ الخوفِ بشخصٍ يجيءُ، ورمز له بلازمٍ من لوازمِه، وهو المجيءُ، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، ففيه تصويرٌ للخوفِ في صورةِ كائنٍ حيٍّ مُخيفٍ يتحرَّكُ، ويجيءُ، ولهُ مَوقعٌ آخرُ من الحُسْنِ، هو مقابلتُه لقولِه: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾، وهكذا يُريكَ المنافقينَ بينَ حالينِ متباينَينِ في مدَى هذين الطَّرَفينِ: مجيءِ الخوفِ وذهابِه[1].

فائدةُ استعمالِ مفردةِ الرُّؤْيَةِ:

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.

يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ بفعلِ الرؤيةِ ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ دون النَّظر؛ لأنَّ الخِطابَ في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ للنَّبي ﷺ، وهو يَقْتَضي أنَّ هَذا هو حِكايَةُ حالٍ وقَعَتْ، لا فَرْضُ وُقوعِها، ولِهَذا أُتيَ بِفِعْلِ ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ ولَمْ يقل: (فَإذا جاءَ الخَوْفُ يَنْظُرونَ إلَيْكَ)[1]، أو (فَإذا جاءَ الخَوْفُ؛ نَظَروا إلَيْكَ)، فأفادَ فِعلُ الرؤيةِ هَهُنا تصويرَ حالِهم واقعًا في أرْضِ المَعْرَكَةِ، وإدْراكَ النَّبيِّ ﷺ لِما يدورُ في نُفوسِهم.

تصويرُ حالِ المنافقين واقعًا في أرْضِ المَعْرَكَة

بلاغةُ الإضمارِ:

أضمرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ صِفَةَ الَّذينَ نزلَ الخطابُ بشأنِهم، وهُمُ المُنافقونَ؛ وذلك أنَّ السّياق فيهم، فلا ينْصَرِفُ الخِطابُ لغَيْرِهم، وأمرٌ آخرُ: وهو أنَّ المنافقينَ يَنْقَسِمونَ إلى جماعاتٍ: فَمِنْهُم المُعَوِّقونَ، ومِنْهُم القائلونَ، ومِنْهُم مَنِ اجتمعتْ فيه كُلُّ الخصالِ السَّيِّئَةِ والفِعالِ الذَّميمَة، فكانَ التَّعبيرُ بالضميرِ مناسِبًا؛ ليعودَ الضميرُ على هؤلاءِ جميعًا.

الإضمارُ إيجازٌ مقصودٌ يشملُ جماعاتِ المُنافقينَ وصفاتِهم

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي:

جاء الفعلُ بصيغَةِ الماضي دونَ المضارعِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، فلم يَقُلْ (فإذا جاءَ الخوفُ تراهُم ينْظُرونَ إليك)؛ لتأكيدِ إدراكِ النَّبيِّ ﷺ، لخوْفِهم واضطرابِ نُفوسِهم إدراكًا يقينيًّا مُتَحَقِّقًا، ففيه إشعارٌ بأنَّ الأمرَ أوضحُ من أن يحتاج إلى تدقيقٍ في النَّظرِ، فبمجرَّد مجيءِ الخوفِ رأيتهم على هذه الحال.

حالُ المنافقين أوضحُ من البحث عن حقائقهم

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ باستعمالِ مادةِ (النَّظَرِ)؛ إذ النَّظَرُ هوَ تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشيءِ ورؤيَتِه[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى نَظَرهم إلَيْه

اضطرابُ المنافقينَ وفَزَعُهم ومحاولتُهم إدراكَ مدَى سوءِ موقِفِهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 296.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (نظر).

نَظَرَ المُتَفَرِّسِ في الذي يَصْنَعُ، ولِسانُ حالِهِمْ يَقولُ: أَلَسْنا قَدْ قُلْنا لَكم: إنَّكم لا قِبَلَ لَكم بِقِتالِ الأحْزابِ، فارْجِعوا؟ وهم يرَونهُ أنَّهم كانوا عَلى حَقٍّ حينَ يُحَذِّرونَهُ قِتالَ الأحْزابِ، ولِذَلِكَ خَصَّ نَظَرَهم بِأنَّهُ لِلنَّبي ﷺ، ولَمْ يقلْ: يَنْظُرونَ إلَيْكم، وجيءَ بِصيغَةِ المُضارِعِ؛ ليَدُلَّ عَلى تَكَرُّرِ هَذا النَّظَرِ وتَجَدُّدِهِ[1]، وفي ذلك كُلِّه دلالةٌ على ما أصابَهم من خوفٍ وفزَعٍ وهلَعٍ، لمّا دَهَمتْ جيوشُ الكفارِ المدينةَ المنوَّرةَ.

بلاغةُ استِعمالِ حرفِ (إلى):

نـظـرُ المنـافـقين ينتهي إلى غاياتٍ كـثـيرةٍ بحسبِ كلِّ ناظرٍ منهم

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ عَدَّى النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بحرفِ الجر (إلى)، الدّالِّ على انتهاءِ الغايةِ، ذلكَ أنَّ غايةَ نَظَرِهم التَّطَلُّعُ إلى رسولِ اللّه ﷺ كأنَّهُم يُحَمِّلونَه ما هُم فيه من بؤسٍ وشقاءٍ واضطرابٍ، أو كأنَّهُم يتطلَّعونَ إليه؛ ليعرِفوا هل يدركُ ما يدورُ في أنْفُسِهم من اضطرابٍ وخديعةٍ، أو أنَّهم لشدَّة خوفِهم وهلعِهم ينظرون إليه، ينتظرونَ منهُ الأملَ في النَّجاةِ، والأولى اجتماع هذه المعاني وغيرِها ممّا يحتمله المعنى.

نكتةُ إفرادِ ضميرِ الخطابِ دون جمعه:

النَّبيُّ ﷺ عياذُ كلِّ خائفٍ وملجأُ كـلِّ مستغيثٍ حـتـى لـو كـانَ منافقًا

آثر النَّظْمُ الحكيمُ خطابَ الإفراد على خطابِ الجمع في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّه عند وقوع المدلهمّات، فإنَّ الأنظار تتَّجه إليك على وجه الخصوص، تطلبُ اللواذَ بِكَ، والحمايةَ مِنْكَ، فأنتَ مأْمَنُ المُسْتَغيثِ، ومَلْجَأُ الخائفِ، ومِنْها أنَّ مُروءَتَكَ وعَظَمَةَ نَفْسِكَ ورَحْمَتَكَ بالناسِ أجمعينَ خَليقَةٌ فيكَ، عَرَفَها مَنْ حولَكَ، حتَّى عَدوُّك اللَّدودُ تراه يندَفِعُ نَحْوَكَ؛ إذا حَزَبَهُ الأمْرُ لائذًا ومُستَجيرًا، وهوَ يَعْلَمُ في قرارةِ نَفْسِهِ أنَّه لائذٌ بأكرمِ الرِّجالِ نَفْسًا، وأبَرِّ بني الإنسانِ بالإنسانِ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 297.

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 141.

فائدةُ جملةِ الحالِ:

جاءت جملةُ الحالِ ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ لِتَصْويرِ هَيْئَةِ نَظَرِهِمْ نَظَرَ الخائِفِ المَذْعورِ الَّذي يُحْدِقُ بِعَيْنَيْهِ إلى جِهاتٍ يَحْذَرُ أنْ تَأْتيَهُ المَصائِبُ مِن إحْداها[1].

بَلاغَةُ استعمال مفردةِ ﴿تَدُورُ﴾:

تـصـويـرُ حـالِ المُنافقينَ بسبب قِـلَّـةِ يقينِهم وفَراغِ قلوبِهم

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ فعل (دَوَرانِ الأعْيُنِ) للتَّعبيرِ عنْ حالِ المنافقينَ وبيانِ ما أصابَهم من هَلَعٍ وخوفٍ عندَما ابتدأتْ بوادرُ المَعْرَكَةِ، دونَ استعمالِ فعلِ (التَّلَفُّتِ) أوِ (التَّقَلُّبِ)؛ وذلكَ لأنَّ المُرادَ بالدَّوَرانِ تصويرُ ارتباكِ حَركةِ عُيونِهم واضطرابِها حَتَّى لا يَصِحَّ مِنْهُمُ النَّظَرُ إلَى جِهَةٍ، لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ حَذَرًا أنْ يَأْتيَهُمُ القَتْلُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ[2]؛ إذِ المنافقونَ قومٌ شاكّونَ في نصرِ اللهِ لنَبيِّه ﷺ، وفي (الدوران) من حَيَويَّةِ التصوير ما لا يوجَدُ في (التَّلَفُّتِ)، إذِ (التَّلَفُّتُ) لَيُّ الشَّيْءِ أوْ تَحْويلُه عن حالٍ أو وجْهٍ إلى آخَرَ، أو حَوْلَ شَيْءٍ فيَمتسكُ[3]، فليسَ فيه ما في (الدَّوَرانِ) مِنَ الحَرَكةِ السريعةِ الدّائِبةِ والاضْطِرابِ القَلِقِ، وأمّا (التَّقَلُّبُ)؛ فَهوَ يَدُلُّ عَلَى تغْييرِ الأحْوالِ إلى عكْسِ ما كانَتْ عَليْه، فليْسَ فيهِ ما في الدَّوَرانِ مِنَ الاضْطِرابِ والدَّأبِ والسُّرْعَةِ، ومِنْ هُنا كانَ التَّعبيرُ بـ(الدَّورانِ) أنسبَ لتصويرِ الحالةِ الَّتي اعترتْ هؤلاءِ المنافقينَ بسببِ قِلَّةِ يقينِهم وفَراغِ قلوبِهم وفَسادِ قُلوبِهم.

دَلالَةُ وصْفِ الأعينِ بالدَّورانِ:

الـدَّورانُ حركةٌ يَـنْـتَـهـي فيها الشَّيءُ إلى حَيْثُ ابْتَدَأ

التعبيرُ بلفظِ (الدَّورانِ) أبلغُ مِنَ التعبيرِ بلفظِ (الزَّوغانِ)، وذلكَ لأنَّ الزَّيْغَ إنَّما يَدُلُّ على المَيْلِ أو الانْحِرافِ بِشِدَّةٍ عَنِ الاطِّرادِ في الاتِّجاهِ المُسْتَقيمِ إلى جِهَةٍ أُخْرَى[4]، أمّا الـ(دوْرُ) و(والدَّوَران)؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 297.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 153.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لفت).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زيغ).

فَهوَ حَرَكَةُ جِسْم رَحَويَّةٌ، أيْ: كَحَرَكَةِ الرَّحى، مُنْتَقِلٌ من مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ، فَيَنْتَهي إلى حَيْثُ ابْتَدَأ، فَمَعْنى ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: أنَّها تَضْطَرِبُ في أجْفانِها كَحَرَكَةِ الجِسْمِ الدّائِرَةِ من سُرْعَةٍ تَنْقُلُها مُحَمْلِقَةٍ إلى الجِهاتِ المُحيطَةِ[1]؛ بحثًا عنْ مَلْجَأ يلجَؤون إليه، وملاذٍ يَلوذون به.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بصيغة المُضارِعِ:

تَـجَـدُّدُ حـركـةِ الأعـينِ الـفَـزِعَـةِ تَـصْـويـرٌ لـهَـلَـعِ النُّفوسِ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ الفعلِ المضارعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ للتَّعبيرِ عنْ حالِ المنافقينَ؛ وذلكَ لقوَّةِ الحَرَكَةِ الدّائِبَةِ، فَإنَّ (الدَّوران) مِنَ الكَلِماتِ المُصَوِّرَة لِمَعْناها بهَيئتِها، فأفادَ التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ الكشْفَ عنْ تجَدُّدِ الحَدَثِ وتَكْرارِه واسْتِمْرارِه، واستحضارِه، فَإنَّ المُتَلَقّيَ يكادُ يبْصِرُ هذه العيونَ في حَرَكَتِها الدّائِبَةِ اللّاهِثَةِ، تَدورُ وتدورُ، وهذا الدَّوَرانُ مُسْتَمِرٌّ لا يَزولُ، ما دامَ الخَوْفُ قدْ جاءَ إلى أنْ يَزولَ، فلنْ تَهْدَأ هذه الحركةُ إلّا إذا ذهَبَ الخَوْفُ، وحينَئِذٍ يَنْتَهي دورُ العيونِ الشّاخِصَةِ؛ ليبدَأ دورُ الألسنةِ الحدادِ[2].

فائدةُ ذِكرِ الأعين دون الأبصار:

تـصـويـرُ حَـرَكَـةِ الـعَـيْـنِ ومـا تكشفُه من خورٍ نفسيٍّ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾، آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بـ(الأعينِ) دونَ (الأبصارِ)؛ لأنَّ العَيْنَ هي آلةُ البَصَرِ، وهيَ الحَدَقَةُ، أمّا البَصَرُ؛ فهوَ اسمٌ للرُّؤْيَةِ، ولهذا يُقالُ: إحْدَى عَيْنَيْهِ عَمْياءُ، ولا يُقالُ: أحَدُ بَصَرَيْهِ أعْمَى[3]، ولمّا كانَ المرادُ في الآيةِ تصويرَ حركةِ العينِ بما هي جارحةٌ جسديَّةٌ بوصفِها آلةً للنَّظَرِ، لا فِعْلَ البصَرِ والرُّؤْيَةِ؛ كانَ استعمالُ الأعينِ في هذا السياقِ أنسبَ وأدقَّ لبيانِ شدَّةِ اضطرابِهم وفَزَعِهم،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زيج).
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 82.

فَكَأَنَّ العينَ وكلَّ ما تَراه أصبحَ يَدور في حركةٍ لا تنْتَهي من جرّاءِ هَلَعِهم وخوفِهم.

معنى الإضافَةِ ودلالتُها:

تَـخـصـيـصُ الـدورانِ بأعينِ المنافقينَ دونَ غَيْرِهم

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ إضافَةَ الأعينِ إلى الضمير (هُم) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ دونَ أن يُقال: (تَدورُ الأعينُ) كما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأحزاب: 10]؛ وذلكَ لأنَّ إضافةَ الأعينِ إلى المنافقينَ يُقْصَدُ به تخصيصُ الدورانِ بأعْيُنِهم وإظهارُ ذلك؛ فَهُمُ الَّذينَ تبدَّلتْ أحوالُهم، وطاشتْ عقولُهم، فاضطربَتْ نفوسُهم، ففيها معنى لام الاختصاص، وأنَّ ذلك لم يكن لغيرِهم.

بَلاغَةُ المَجازِ المرسلِ:

لَـيْـسَ الـدَّوَرانُ دَوَرانَ الأحْداقِ، لَـكِـنَّـهُ دَوَرانُ الـعـيـونِ حتَّى الجُفونِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ عنْ فَزَعِ المنافقينَ وهَلَعِهم، وأصلُه: تَدورُ أحْداقُهُم في أعْيُنِهم، ولَكِن لِشدَّةِ هذا الدَّوَرانِ وسُرْعَةِ هذا التَّقَلُّبِ خُيِّلَ أنَّ العُيونَ كُلَّها تَدورُ، فَلَيْسَ الدَّوَرانُ دَوَرانَ المَحاجِرِ والأحْداقِ، ولَكِنَّهُ دَوَرانُ العيونِ حتَّى الجُفونِ والأهْدابِ، فهو من إطلاقِ المحَلِّ على الحالِّ، وهوَ ضربٌ منَ المَجازِ المُرْسَلِ[1].

بلاغةُ التشبيه:

اكْـتِـنـازُ حـرفِ الـكـافِ معاني عدَّة ببانًا لشدَّةِ فزعِ المُنافِقينَ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بحرف الكافِ الَّذي يفيدُ التَّشبيهَ، فشَبَّهَ نظرهُم بنَظَرِ الَّذي يُغْشى عليه بِسَبَبِ النَّزْعِ عِنْدَ المَوْتِ، فَإنَّ عَيْنَيْهِ تَضْطَربانِ، وعلى هذا الوجْهِ تكونُ الكافُ في محلِّ نصبٍ، صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: ينْظُرونَ إليكَ نَظَرًا مِثْلَ نظرِ الَّذي يُغْشَى عليه من المَوتِ، أو تكونُ عائدةً على الدَّورانِ، فتكونُ أيضًا في محلِّ نَصْبٍ صِفَةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: تَدورُ أعينُهم دَورًا أو دَورانًا مثلَ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.

دوَرانِ عينِ الَّذي يُغْشَى عليه من الموت، وذهب بعضُ المعربينَ إلى أنَّها حالٌ مِنْ ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾، أي: تَدورُ أعْيُنُهم حالَ كوْنِها مُشْبِهَةً عينَ الَّذي يُغشى عليه من الموتِ، أو هيَ حالٌ من الفاعلِ في ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: رَأيْتَهُم ناظِرينَ إليكَ، دائرةً أعْيُنُهم مُشْبِهينَ لِلْمَغْشيِّ عليه من الموتِ[1]، وعلى أيِّ وجْهٍ من هذه الوجوهِ، فإنَّ التشبيهَ قد أفادَ شدَّةَ هَلَعِهم وخَوفِهم.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ (الذي):

الـــذي يُـغـشى عليه من المـوتِ مـعـهـودٌ وهـو مـثـالُ الـهـالـكِ المأزوم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بِالاسْمِ المَوْصولِ (الَّذي) دونَ (مَنْ) رغْمَ أنَّ كليهما اسمٌ مَوْصولٌ؛ وذَلِكَ لأنَّ (الَّذي) اسْمٌ مَوْصولٌ مُخْتَصٌّ، وهوُ نصٌّ؛ لأنَّهُ يَخْتَصُّ بِالمُفْرَدِ المُذَكَّرِ تَحْديدًا دونَ غَيْرِه، وأمّا (مَنْ) وكَذَلِكَ (ما)؛ فهي من الأسْماءِ الموصولةِ المشتركةِ، الَّتي تُسْتَعْمَلُ للمُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ، ويُسْتَعْمَلُ للمُفْرَدِ والمُثَنَّى والجَمْعِ، والفَرْقُ اللُّغَويُّ بَيْنَهُما أنَّ (الَّذي) مختصٌّ أو نَصٌّ، أيْ: في مِعْنًى مُعيَّنٍ، وهوَ المفردُ المُذكَّرُ، و(مَنْ) مُشْتَرَكٌ، ومِنْ هُنا فإنَّ (الَّذي) أعْرَفُ وأخَصُّ مِنْ (مَنْ)؛ لأنَّ المُخْتَصَّ أعْرَفُ وأخَصُّ في التَّعبيرِ عن بعضِ المعاني[2]، ومِنْ هُنا فقد آثَرَ البيانُ القُرآنيُّ استعمالَ الاسمِ الموصولِ (الَّذي)؛ للإشارةِ إلى حالةٍ معروفة بَينَهُم، قدْ خبروها بأُمِّ أعْيُنِهم مرّاتٍ عدَّةً، فهوَ ليس أمرًا نادِرًا، بلْ يعْرِفونَ هذه الحالةَ جيِّدًا، ومِنْ ثَمَّ كانَ التصويرُ بها أبلغَ في بيانِ حالِهم وما اعْتراهُم مِنْ هَلَعٍ وخوفٍ.

بلاغةُ اتِّساقِ مفردةِ الغَشَيانِ بالدَّورانِ:

النِّفاقُ يُمْرِضُ الـقُـلـوبَ حتَّى تُـــعـــانِي مـن سَكَراتِ الموتِ

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مفردة الغشيانِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ لِتَصْويرِ ما دَهَمَ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 252.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 139.

المنافقينَ مِنْ شِدَّةِ الخَورِ والجُبْنِ؛ إذِ الغشَيانُ هوَ تَغْطيَة شَيْءٍ بِشَيْءٍ، فَهُم يَنْظُرونَ نَظَرًا كَمَن يعالجُ سَكَراتِ المَوْتِ حَذَرًا وخَورًا، ولِواذًا بِكَ[1]، فقد أضْفى استِعْمالُ الغَشَيانِ على الدَّورانِ اللاهِثِ الَّذي أصابَهُم وصْفَ الضَّعْفِ والتَّخاذُلِ والفُتورِ والهَوانِ، فَلَيْسَ هذا الدَّوَرانُ والدَّأبُ مِنَ العُيونِ أمارةَ الحَيَويَّةِ والحياةِ، وإنَّما هو مَظْهَرُ المَوْتِ والاسْتِسلامِ، وما أرْوَعَ كلمةَ ﴿يُغْشَىٰ﴾! حيثُ غُشيَتْ حَرَكَةُ عُيونِهم بِغِشاءِ المُسَجَّى الَّذي خَذَلَته قواه، وهَمَّ بِفِراقِه نبضُ القوَّةِ والحياةِ، انْظُر إلى حُسنِ هذا التَّشْبيه؛ إذِ اخْتارَ نَظَرَ المَغْشيِّ عَلَيْه مِن المَوْتِ، صورَةً صادِقَةً لِهَؤُلاءِ الخَوّارينَ الَّذينَ يَمْلَأُ قُلوبَهم الجُمودُ والمَوْتُ، والَّذينَ وصَفَهُم في أكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ بِمَرَضِ القُلوبِ، وإذا طالَ زَمَنُ مرَضِ القُلوبِ؛ استَشْرَى فيها داؤُها، وماتَ كُلُّ معنًى من معاني الحياةِ، الَّتي لا تَجِدُ لَها مقرًّا إلّا في صِحاحِ القُلوبِ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ مَبْنيًّا للمَفْعولِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ ﴿يُغْشَىٰ﴾ مبنيًّا للمفعولِ؛ للدَّلالةِ على استحضارِ صورةِ الَّذي يُعالجُ سكراتِ الموتِ، فَهو يعالجُ السَّكْرَةَ تِلْوَ الأُخْرى، وذلكَ لبيانِ شدَّةِ خَورِهِم وجُبْنِهم، وقدْ جاء الفِعْلُ كذلكَ في صيغةِ المبْنيِّ للمَفْعولِ؛ لبيانِ "شِدَّةِ العِنايَةِ بِتَصْوير ذَلِكَ بِجَعْلِ المَفْعولِ عُمْدَةً بِبِناءِ الفِعْلِ لَهُ"[3]؛ إذِ المَقْصودُ بيانُ شدَّةِ سكَراتِ الموتِ، وليسَ الفاعلَ، وهوَ اللّهُ ﷻ.

استحضارُ شدَّةِ سَكَراتِ المَوْتِ، والعنايةُ ببيانِ فَظاعَتِها إشارةً لِهَلَعِهِم

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

عَدَّى النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿يُغْشَىٰ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ بحرف الجرِّ (على) الَّذي يُفيدُ الاستعلاءَ،

غَشَيانُ المَوْتِ فعلٌ ثقيلٌ يأتي من أعلى

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 398.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

الَّذي يُستعمَلُ للأفعالِ الشّاقَّةِ المُستَثْقَلَةِ[1]، فَلَمّا كانَ غَشَيانُ الموتِ بِسَكراتِه مِنَ الأفعالِ الشّاقَّةِ الَّتي تُعَبِّرُ عنْ أصْعَبِ ما يَعْتَري الإنسانَ في هذِه الحياةِ الدُّنْيا؛ كانَ استعمالُه في هذا الموضِعِ أنسبَ وأدَقَّ في بيانِ حالِهِم، وهُم يستَعْطِفونَ المسلمينَ؛ ليَذُبّوا عنهم إنْ حَضَروا اللِّقاءَ، مع ما فيه مِن تصويرِ حالةِ الغشيانِ، وتأكيدِها بحرف الاستعلاءِ، فإنَّ الغشيان يكون من أعلى.

دلالَةُ استعمالِ مفردة الموت دون القَتْلِ:

المَوْتُ هوَ النِّهايةُ الغالبةُ لِكُلِّ البَشَرِ بخلافِ القَتْلِ

آثرَ النَّظْمُ الكريم في قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ استعمالَ لفظةِ ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ دونَ لَفْظَةِ (القَتْلِ)؛ لأنَّ وُقوعَ المَوْتِ هوَ النِّهايةُ الغالبَةُ لكلِّ البَشَرِ، أمّا القَتْلُ؛ فَهو أمرٌ عارضٌ؛ إذ إنَّ رُؤْيَةَ المَيِّتِ، وهوَ يعالجُ سَكَراتِ الموتِ أمْرٌ معتادٌ مُشاهَدٌ في حياةِ النّاسِ، بِخِلافِ القَتْلِ، الَّذي هوَ أمرٌ نادرُ الحُدوثِ، وإن حدث؛ فلا يراه إلّا القليلُ، ويكون موتُ المقتولِ في العادة سريعًا، لا كالميِّت الذي قد يُصارع الموتَ زمنًا أطول؛ فلذلكَ كانَ التَّعْبيرُ بالموتِ أنسبَ وأدقَّ في هذا السياق للدلالةِ على التَّصويرِ المَقْصودِ، وهو حالُ المُنافقينَ وما أصابَهم مِنْ هَلَعٍ بحالِ المَغْشيِّ عليه مِنَ الموْتِ.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

الجبانُ إن تلاشتْ أسبابُ جُبنِه؛ نطقَ بالسّوءِ، وأتى بالمنكرِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، رَبَطَ النَّظْمُ الحكيمُ بين هذه الجملةِ والجملةِ السابقةِ عليها، وهيَ قولُه تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، بفاءِ التَّفْريعِ؛ لتفرُّعِ ما بَعْدَها عَلَى ما قَبْلَها، فهيَ تَفريعٌ عَلى وصْفِهِمْ بالخَورِ والجُبْنِ وشدَّةِ الفَزَعِ من الحربِ، فإذا انتصَرَ المسلمونَ؛ فإنَّهُم يُحاوِلونَ

(1) ابن جني، الخصائص: 2/ 273.

مداراةَ مواقِفِهم المُخْزِيَةِ بالباطلِ وسوءِ الأدبِ والأذَى، وهوَ دَليلٌ على لؤمِ نُفوسِهم وخِسَّةِ طباعِهم.

دلالةُ استعمالِ أداةِ (إذا):

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عنِ انْتهاءِ الحَرْبِ وانتصارِ المُسلمينَ بالظَّرفِ (إذا)، دونَ حرفِ الشَّرْطِ (إن)، وذلكَ لأنَّ (إذا) تفيدُ القطعَ بوقوعِ شرطِها غالبًا، أمّا (إنْ)؛ فإنَّها إنَّما تُستعمَلُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه، الَّذي يحتملُ الشَّكَّ، وفي ذلكَ بُشْرى للمُسْلِمينَ بانتصارِهم على عدوِّهم الَّذي أحْدَق بِهِم، وهيَ في الوقْتِ ذاتِه تحذيرٌ وغَمٌّ للمنافقينَ بانكشافِ ما يَعْتَورُ في نفوسِهم من خيانَةٍ، وما تَمورُ به قُلوبُهم من مَكْرٍ، فإذا هُم يُحاوِلونَ المُماراةَ بالباطِلِ والجدَلِ الفارِغِ؛ مداراةً لنُكولِهم وخَورِهم.

بُشْرَى المُسْلِمينَ بالانتصارِ وغمُّ المنافقين بالانكسارِ

بَلاغَةُ المَجازِ بالحذفِ:

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾، عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عن انتصارِ المُسلمينَ وزَوالِ الخَطَرِ بذهابِ الخوفِ، وهوَ مَجازٌ مَشْهورٌ في الانْقِضاءِ، أيْ: زَوالِ أسْبابِه بِأنْ يُتْرَكَ القِتالُ، أوْ يَتَبَيَّنَ ألّا يَقَعَ قِتالٌ، وذَلكَ عِنْدَ انْصِرافِ الأحْزابِ عَنْ مُحاصَرَةِ المَدينَةِ كَما سَيَدُلُّ عليه قَوْلُهُ: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾[1]، فهو مجازٌ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه، أي: ذهبت أسبابُ الخوفِ، وهي هنا الأحزاب.

إذا ذهبت أسبابُ الخوفِ؛ انطلقتْ ألسُنُ الخائفين

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

شبَّه النَّظْمُ الكريم لفظَ الخوفِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾، بشخصٍ عاقلٍ قادرٍ على الذَّهابِ، وحذف المشبَّه به، وذكر لازمًا من لوازمِه، وهو فعل ﴿ذَهَبَ﴾، على سبيل الاستعارة المكنيَّة

الخوفُ مانعٌ من الكلامِ يلجُمُ القلوبَ الضَّعيفةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 298.

الأصليَّة، وتكمن بلاغةُ الاستعارةِ في تجسيد معنى الخوفِ، وأثره الكبير في النُّفوس، فكأنَّه ثِقَلٌ جاثمٌ فوق الخائفين، مانع من القيل والقال، فبمجرَّد ذهابِه نطق المنافقون بما لم يستطيعوا قولَهُ عند وجود الخوف.

بَلاغَةُ المُقابَلَةِ بَينَ مجيءِ الخوفِ وذهابِه:

خِسَّةُ المنافقينَ تظهر في الجمعِ بين هَلَعِهم، وسلاطةِ لسانهم

بَيْنَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ وقولِه: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ مُقابَلَةٌ تُبَيِّنُ موقفَ المنافقينَ بينَ حالينِ متباينَين في مدَى هذين الطَّرَفين: مجيءِ الخوفِ وذهابِه[1]، فَهُم بينَ خَورٍ وخوفٍ وهَلَعٍ في الحالِ الأولى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، وسلاطةِ لسانٍ وسوءِ أدبٍ في الأخرى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، فلا ينْفَكّونَ عنْ خُلُقٍ ذميمٍ وفعلٍ مشينٍ بسببِ خِسَّةِ نُفوسِهم.

نكتةُ تكرارِ لفظِ ﴿ٱلْخَوْفُ﴾:

الامْتِنانُ بِذَهابِ الخَوفِ الَّذي اعْتَرَى المُؤْمِنينَ بِحِصارِ الأَحْزابِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ أعادَ البيانُ القُرآنيُّ ذِكرَ لفظِ ﴿ٱلْخَوْفُ﴾؛ تأكيدًا لِشدَّةِ ما تَعَرَّضَ له المسلمونَ من هولِ الأحزابِ وتكالُبِهم على المؤمنينَ من كلِّ جانبٍ، وفي إعادةِ ذكرِ الخوفِ كذلكَ امتنانٌ على المؤمنين بِذِكْرِ ما أنْجاهُم اللّهُ تعالى من شَرِّ الأحْزابِ، فحسُنَ في هذا المقامِ التَّذْكيرُ بسببِ الفَزَعِ مرَّةً أُخْرَى.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿سَلَقُوكُم﴾:

بَيانُ شديدِ ما تجمعُه ألسنةُ المُنافِقينَ من الحقدِ والحسدِ والغيظِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عنْ وقاحَةِ المُنافِقينَ وسوءِ أدَبِهم وجشَعِهم بعدَ بيانِ خَورِهم وجُبْنِهم بفِعْلِ (السَّلْقِ)، دونَ فعل (الأذى)، وذلكَ لأنَّ أصْلَ السَّلْقِ بَسْطُ العُضْوِ، ومَدُّهُ لِلْقَهْرِ، سَواءٌ كانَ يَدًا أم لِسانًا، فَسَلْقُ اللِّسانِ بِإعْلانِ الطَّعْنِ والذَّمِّ، وفُسِّرَ السَّلْقُ هُنا بِالضَّرْبِ مَجازًا،

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.

كَما قيلَ لِلذَّمِّ: طَعْنٌ، أيْ: آذَوْكم بالكَلام، وخاصَموكم بِأَلْسِنَةٍ سَلِطَةٍ ذَرِبَةٍ، واعْتَبَرَ بَعْضُهم في السَّلْقِ رَفْعَ الصَّوْتِ، والمرادُ بالسلقِ هَهُنا: أنَّهُم بالَغوا فيكُمْ بِالكَلام، وخاصَموكم في الغَنيمَةِ أشَدَّ مخاصمةٍ، وأبْلَغَها، وآذوكُم بِالكَلامِ في الأمر بأَلْسِنة سَليطة ذَرِبَة، وبَسَطوا أَلْسِنَتَهم فيكُمْ، وقْتَ قِسْمَةِ الغَنيمَةِ، يَقولونَ: أعْطونا أعْطونا، فَلَسْتُمْ بِأحَقَّ بِها مِنّا[1]، وكذلكَ فإنَّ مِن مَعاني السَّلقِ قَشْرَ اللَّحْمِ عنِ العَظْمِ، واستعمالَ الماءِ في إزالةِ اللَّحْمِ المطبوخِ[2]، فكأنَّ سوءَ أدَبِهم وسلاطةَ ألسنَتِهم قد أثَّرَ في أبدانِ الصحابةِ رضوانُ اللّه تعالى عليهم، ولذا فإنَّ في التَّعْبيرِ بـ﴿سَلَقُوكُم﴾ من المعاني ما ليسَ يوجَدُ في (آذوكُم)؛ لأنَّ الأذَى هوَ الشَّيْءُ تَتَكَرَّهُهُ، ولا تَقِرُّ عليه، يلحقُكَ منه ضرَرٌ[3]، وهوَ ضررٌ يَسيرٌ في أغلبِ الأحْوالِ، وكَوْنُ الأذَى البدنيِّ غيرَ مُبَرِّح يُناسِبُ التَّهْوينَ مِنْ شَأْنِ مَكْروهِهِ بِالنِّسبَةِ للضَّررِ، كما قدْ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِه تعالَى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111]، ولذا فقد أشارَ بعْضُهم إلى أنَّ الأذَى هوَ المَكْروهُ اليَسيرُ أو الشَّرُّ الخَفيفُ[4].

نكتةُ جمع الضَّمير دون إفرادِه:

عَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، عن توجيهِ الخطابِ بكافِ الخطابِ للمفردِ، وآثرَ التَّعبيرَ بالكاف والميم الدالةِ على الجمعِ، فعَبَّرَ بِخطابِ الجمعِ دونَ خطابِ الواحدِ، بعدَ أنْ قالَ قبلَ ذلكَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ بضميرِ المفردِ؛ تَكْريمًا له ﷺ حَتَّى لا يَتَسَلَّطَ هذا الفعلُ الَّذي هوَ (السَّلْقُ) قَصْدًا إليه، وإشارةً إلى أنَّ عَيْبَهُم لنْ ينالَ منه ﷺ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّهُم لمْ يَجْرؤوا أنْ يُفْرِدوه بالعيبِ والشَّتْمِ،

النَّأيُ بِمقامِ النَّبيِّ ﷺ أن يَتَسَلَّطَ عَليه فِعلُ (السَّلقِ) تَكْريمًا لِه وتشريفًا لِقَدْرِه

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سلق)، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 163.
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (سلق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذى).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (أذى).

وقدْ كانوا كذلكَ أبدًا يَهابونَه دائمًا، وواجَهوه بالكُفْرِ، وما واجَهه أحدٌ بكلماتِ الشَّتْمِ والعيبِ، وإنَّما كانوا يلوون ألسِنَتَهم بالسوء[1].

نوعُ الباءِ ودلالَتُها:

المنافقُ يُسرع في تسليطِ لسانِه على المؤمنين ويُبطئه على الكافرين

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، عَدَّى النَّظْمُ الحَكيمُ فعلَ ﴿سَلَقُوكُم﴾ بحَرفِ الباءِ، الَّتي تُفيدُ الاستعانة هنا، فَكَأنَّ لسانهم هو آلة فِعْل السَّلْقِ، وفيه إشارة إلى أنَّ أذاهم لم يكن إلّا بالكلام واللسان، وإلّا فهُم أجبنُ عن شيء آخر غيرِ القول باللِّسان، كما في قَوْلِه تعالَى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111]، وفي هذا أيضًا تصويرُ ألسنتِهم بأنَّها سياطٌ تنزل على الأبدانِ، وهي حاميةُ الوطيس، فهو تعريضٌ بهم؛ إذ لم يُحسنوا إلّا أن يُسلِّطوا ألسنتَهم على المؤمنين، دون أن يُسلِّطوا سهامهم في نحورِ الغاصبين.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في لفظِ الألسنة:

الألسنةُ سلاحُ المنافقِ على المؤمنِ

في بيانِ حالِ المنافقينَ وإيضاحِ لُؤْمِهم استَعْملَ النَّظْمُ الحكيمُ لفظَ ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾ دونَ غيرِها، فلم يأتِ بـ(سَلَقوكُم بأقوالِهم الخبيثة) أو (بِكَلامِهم السَّليط)، وإنَّما عبَّرَ بالألْسِنَةِ لإرادةِ الإطلاقِ؛ إذ اللسانُ مجازٌ مُرسَلٌ عن الأقوالِ، عَلاقَتُهُ الآليَّة، فَأطْلَقَ الآلةَ، وهيَ اللِّسانُ، وأراد الكلماتِ والأقوالَ، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّ القومَ كانوا يَلْهَجونَ بالطَّعنِ والذَّمِّ والتَّكالبِ على الغَنائِمِ في كلِّ ما ينطقونَ به مِن أقوالٍ، فكأنَّ ألْسِنَتَهم وكلَّ ما تَنْطِقُ به يدورُ في مجالِ الذَّمِّ والطَّعنِ على المسلمين، فكانَ التَّعْبيرُ بالألسنةِ أبلغَ وأشْمَلَ، وهوَ كذلك دليلٌ على تَبَدُّلِ حالِهم بعد ذَهابِ الخَوفِ حتّى أصبحتْ ألسنَتُهم ذَرِبَةً قاطِعَةً فصيحةً بَعْدَ أنْ كانَتْ عِنْدَ الخَوْفِ في غايَةِ اللَّجْلَجَةِ لا تَقْدِرُ عَلى الحَرَكَةِ مِن قِلَّةِ الرِّيقِ، ويُبْسِ الشِّفاهِ، وهَذا لِطَلَبِ العَرَضِ الفاني مِنَ الغَنيمَةِ أوْ غَيْرِها[2].

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 141.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

غرضُ جمعِ لفظ ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾:

بعد ذهابِ أسنَّة الكافرين تبدأ ألسنةُ المنافقين

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بالجمع ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾ دونَ المفردِ (لِسانٍ)، وذلكَ للإشارةِ إلى أنَّ المُنافقينَ كُلَّهُم قدِ اشتَدّوا في مخاصَمَةِ المسلمينَ في الغَنائم، والتَّعَرُّضِ لَهُم بالهمزِ واللَّمْز، فَهُم لا يَنْفَكّونَ يُؤْذونَ المُسْلِمينَ، كما أنَّ فيه إشارةً إلى تنوُّع تلك الألسن، وتعدُّد أنواع خصوماتِهم، وأنَّ كلًّا منهم سلك مسلكًا في سلقِ المؤمنين، فألسنةُ المنافقين تأتي بعد أسنَّة الكافرين.

براعةُ وصفِ الألسنة بِقَوْلِه: ﴿حِدَادٍ﴾:

معاملةُ اللئيم بالحُسنى تقودُه لشراسةِ الطَّبعِ وذرابةِ اللِّسان

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وصَفَ النَّظْمُ الحكيمُ الألْسِنَةَ بأنَّها ﴿حِدَادٍ﴾، وهوَ وصْفٌ مأخوذٌ مِنْ: حَدَّ السيفُ يَحِدُّ حِدَّة واحْتَدَّ، فَهوَ حادٌّ حديدٌ، وأحددته، وسيوفٌ حِدادٌ وألْسِنَةٌ حِدادٌ، ورَجُلٌ حَديدٌ وحُدادٌ مِنْ قَوْمٍ أحِدّاءَ وأحِدَّةٍ وحِدادٍ: يَكونُ في اللَّسَنِ والفَهم والغَضَبِ[1]، ويُعَبَّرُ عنِ الحَديدِ بالشَّيْءِ المُتَناهي في بابِه، واللسانُ الحديدُ، أي: مُصْلَتٌ كَحِدَّةِ السَّيْفِ[2]، والمعنى هَهُنا: أنَّ المنافقينَ تَعَرَّضوا للمسلمين بِأَلْسِنَةٍ ذَرِبَةٍ قاطِعَةٍ فَصيحَةٍ[3]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى مَبْلَغِ ما أصابَ المسلمينَ مِن أذاهُم وسوءِ أدَبِهم، وبيانِ قوَّة جرأتهم على المؤمنين، وشدَّة ضعفهم أمام الكافرين، وهو ما يُبيِّن أنَّ معاملةَ المؤمنين لهم كانت حسنةً، فأغرت ألسنتَهم بالسّوءِ.

بَلاغَةُ الاستعارَةِ:

ألْسِنَةُ المنافقينَ كالسُّيوفِ السَّليطَةِ الَّتي تَنوشُ المُؤْمِنينَ وتُمَزِّقُ أديمَهُم

اُستُعيرَ لفظُ السَّلْق في قولِ اللهِ تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ الَّذي هوَ التَّقطيعُ والتَّمْزيقُ، للإيذاءِ والعَيْبِ والإهانَةِ بالقَوْلِ، فقدْ شُبِّهَ الإيذاءُ والعَيْبُ بالسَّلقِ الَّذي هوَ التَّمْزيقُ بِجامِعِ قوَّةِ التَّأْثيرِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حدد).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حدد).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

والإيذاءِ، وهوَ شائِعٌ في بيانِهم، يَسْتَعيرونَ تَمْزيقَ اللَّحْمِ والأديمِ للإهانةِ والسَّبِّ والعَيْبِ، وكُلِّ ما هوَ مِنْ أعمالِ اللِّسانِ، فالمرادُ بقولِه: ﴿سَلَقُوكُم﴾، أي: آذوكُم إيذاءً بِأَلْسِنَتِهم بَيِّنًا واضحًا، كأنَّه تَمزيقٌ وتَقْطيعٌ، وعلى هذا يكونُ وصْفُ الألسنةِ بالحدادِ في الآيةِ من قَبيلِ التَّرشيحِ لاسْتِعارةِ السَّلْقِ، الَّذي هوَ التَّمْزيقُ للعيبِ والإيذاءِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿حِدَادٍ﴾ قرينةً لاسْتِعارةٍ أُخرى جَرَتْ في الأَلْسِنَةِ، أي: عابوكُم بأَلْسِنَةٍ ذَرِبَةٍ كالسيوفِ المُحَدَّدَةِ الماضيَةِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ من بابِ الاستعارةِ المَكْنيَّةِ على وجْهٍ آخرَ، وذلكَ بِتَشْبيهِ اللِّسانِ بالسَّيْفِ، والرَّمْزُ إلى هذا التَّشبيهِ بالسَّلْقِ المُسْتَعارِ للضَّرْبِ، وبهذا تكونُ قرينَةُ الاستعارةِ المَكْنيَّةِ (السلق) استعارةً أَصْليَّةً، وسواءٌ أكانَ مَوْطِنُ التَّجَوُّزِ هو (السَّلْقُ) أم (أَلْسِنَةٌ)، فإنَّ التَّرْكيبَ يُفيدُ أنَّ أَلْسِنَةَ هؤلاءِ المنافقينَ بعدَ ذَهابِ الخَوْفِ كالسُّيوفِ السَّليطَةِ الَّتي تَنوشُ المُؤْمِنينَ، وتُمَزِّقُ أديمَهُم[1].

نكتةُ تكرارِ لفظِ ﴿أَشِحَّةً﴾:

معاني الألفاظِ تتحدَّدُ بمتعلَّقاتِها وتتعيَّنُ بنوعِ إيرادِها

جاء ذكرُ لفظِ ﴿أَشِحَّةً﴾ مرَّةً أُخْرَى في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، بعدَ أنْ صَدَّرَ بها الآيةَ في قولِ اللهِ جلَّ اسمُه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، وذلكَ على مغايرةِ المعْنَى المرادِ بالشُّحِّ في الموضعينِ، فَهو هُنا مُقَيَّدٌ بالخيرِ المُرادِ بِهِ مالُ الغَنيمَةِ، وما مَرَّ مُقَيَّدٌ بِمُعاوَنَةِ المُؤْمِنينَ ونُصْرَتِهِمْ، أوْ بالإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى، فَلا يَتَكَرَّرُ هَذا مَعَ ما سَبَقَ، ويُمْكِنُ أنْ يُقالَ في الفَرْقِ بَيْنَهما: إنَّ المُرادَ ممّا سَبَقَ في قولِه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ ذَمُّهم بالبُخْلِ بِكُلِّ ما فيهِ مَنفَعَةٌ أوْ بِنَوْعٍ مِنهُ عَلى المُؤْمِنينَ، والمرادُ هنا في قولِه: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ذَمُّهم بالحِرْصِ عَلى المالِ، أوْ ما فيهِ مَنفَعَةٌ مُطْلَقًا مِن غَيْرِ نَظَرٍ إلى كَوْنِ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 140.

ذَلِكَ عَلى المُؤْمِنينَ، أوْ غَيْرِهِمْ، وهو أبْلَغُ في ذَمِّهِمْ مِنَ الأوَّلِ[1]، وعلى ذَلِكَ فالكلمةُ هُنا ليستْ تَكْرارًا دلاليًّا، وإنْ بدتْ في صورةِ التَّكْرارِ، كذلكَ فإنَّ الشُّحَّ هُنا شُحٌّ على النّاس أجمعين، والشُّحُّ هناكَ على المؤمنين فقط بمعنييه السابقين، فليسَ الثاني عَيْنَ الأوَّلِ حتَّى يكونَ تَكْرارًا له، ويُمكنُ أن يقالَ: إنَّه ضَرْبٌ من ضروب التَّكرارِ الَّذي يأْتي فيه الكلامُ المكرَّرُ بفائدةٍ جديدةٍ، وقد قالوا: إنَّ التَّكْرارَ الَّذي يفيدُ معْنًى جديدًا أدْخَلُ في صَنْعَةِ البيانِ، وأرْسَخُ قَدَمًا في بابِ البلاغَةِ منْ غيرِه[2].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

الشُّحيحُ يستعلي بما عندَه على غيرِه فيأنسُ بالموجودِ ويخشى فقدَه

عُدّيَ لَفْظُ ﴿أَشِحَّةً﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾؛ لأنَّ الشُّحَّ يَتَعَدّى إلى الشَّيْءِ المَبْخولِ بِهِ بالباءِ وبِـ(عَلى)، قالَ تَعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، ويَتَعَدّى إلى الشَّخْصِ المَمْنوعِ بِـ(عَلى) أيْضًا لِما في الشُّحِّ مِن مَعْنى الاعْتِداءِ، فَتَعْدِيَتُهُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ مِنَ التَّعْدِيَةِ إلى المَمْنوعِ، والمَعْنى: يَمْنَعونَكم ما في وُسْعِهِمْ مِنَ المالِ أوِ المَعونَةِ[3]، ويُفيد هذا الحرفُ الاستعلاءَ، أي: إنَّ بهم شُحًّا مستعليًا[4]، فَهوَ لا يَنْفَكُّ عَنْهُم، ولا يَنْفَكّونَ عَنْهُ، فَهَوَ جِبِلَّةٌ متأصِّلةٌ فيهم.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿ٱلْخَيْرِ﴾:

المُنافِقونَ يرون الخيرَ في المالِ ومجمعَ القوَّةِ في الاستزادةِ منه

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بلفظ ﴿ٱلْخَيْرِ﴾، والمُرادُ حسب الظاهرِ الغنائمُ، كما أشارَ أغْلَبُ المُفَسِّرينَ، والغنائمُ مالٌ، وقد عُبِّر به عنه بذلك، كما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 180]، وقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 8]، أيْ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 163.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 141 - 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 296.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

هُم في حالَةِ السِّلْمِ يُسْرِعونَ إلى مَلامِكم، ولا يواسونَكم بأَمْوالِهِمْ لِلتَّجْهيزِ لِلْعَدوِّ إنْ عادَ إلَيْكم[1]، وأشارَ البقاعيُّ إلى أنَّ التَّعبيرَ بالخيرِ عن المالِ، إنَّما هوَ لاعْتِقادِهِمْ أنَّهُ لا خَيْرَ غَيْرُهُ، فَبِسَبَبِ شُحِّهم لا يُريدونَ أنْ يَصِلَ شَيْءٌ مِنهُ إلَيْكم، ولا يَفوتَهم شَيْءٌ مِنهُ، وهَذِهِ سُنَّةٌ أُخْرى في أنَّ مَن كانَ صُلْبًا في الرَّخاءِ؛ كانَ رِخْوًا حالَ الشِّدَّةِ وعِنْدَ اللِّقاءِ[2].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالحالِ:

لا يثقُ بالمنافقِ إلّا مثيلُه أو صاحبُ غفلةٍ

ذهبَ المُعربونَ إلى أنَّ كلمةَ ﴿أَشِحَّةً﴾ منصوبَةٌ عَلى الحالِ مِن ضَميرِ الرَّفْعِ في ﴿سَلَقُوكُم﴾[3]، أي: خاصَموكم ولاموكم، وهم في حالِ كَوْنِهِمْ أشِحَّةً عَلى ما فيهِ الخَيْرُ لِلْمُسْلِمينَ، أيْ: إنَّ خِصامَهم إيّاهم لَيْسَ كَما يَبْدو خَوْفًا عَلى المُسْلِمينَ، واسْتِبْقاءً عليهِمْ، ولَكِنَّهُ عَنْ بُغْضٍ وحِقْدٍ، فَإنَّ بَعْضَ اللَّوْمِ والخِصامِ يَكونُ الدّافِعُ إلَيْهِ حُبَّ المَلومِ وإبْداءَ النَّصيحَةِ لَه[4]، ففيها احتراسٌ عن توهُّمِ الخيرِ في أهلِ النِّفاقِ، فلا يثقُ بمنافقٍ إلّا مثله أو صاحب غفلةٍ وجهالة.

عِلَّةُ فَصْلِ الجملةِ عن السّابقة:

محاربةُ المؤمنين وخذلانهم دليل انعدام الإيمان

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جملةَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ عنِ الجملةِ السّابقةِ، وهي قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، وذلك لِشِبْهِ كمالِ الاتصالِ بينَ الجملتينِ؛ إذْ جاءَ قولُه سُبْحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ مُتَضَمِّنًا إجابةَ السؤالِ الَّذي قدْ يخْطُرُ ببالِ كثيرٍ مِنَ المُتَلَقّينَ، وهوَ: لِماذا وقعَ المُنافِقونَ في هذه الأفعالِ الشائِنَةِ بسَبِّ المسلمينَ والانتقاصِ مِنْهُم؟ ولِماذا امْتَلأتْ قُلوبُهم بالبُغْضِ والكراهيَةِ للمُسْلِمينَ؟ فكانتِ الإجابةُ بأنَّ هؤلاءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 298.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 163.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 298.

القومَ لم يدْخُلِ الإيمانُ إلى قُلوبهم، فالجُمْلَةُ اسْتِئْنافٌ بيانيٌّ، لِذلكَ كان الفَصْلُ ههُنا أليقَ بالسّياقِ، وأدلَّ على المعنى المرادِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ باسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تمييزُ المنافقين عن الجماعةِ الإنسانيةِ والحكمُ ببُعْدِهم وانحطاطِهم

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، الَّذي يُستَعْمَلُ للإشارةِ إلى البعيدِ، ويرادُ به في هذا السّياقِ الإشارةُ إلَى انْحِطاطِ مَنْزِلَةِ المُنافقينَ المُشارِ إليهم، لِقَصْدِ تَمْييزِهِمْ بِتِلْكَ الصِّفاتِ الذَّميمَةِ الَّتي أُجْرِيَتْ عليهمْ من قَبْلُ، وللتَّنْبيهِ عَلى أنَّهم أحْرياءُ بِما سَيَرِدُ مِنَ الحُكْمِ بَعْدَ اسْمِ الإشارَةِ، وبِذَلِكَ فقدْ أسهمَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ في تحديدِ مكانِهِم المُتَمَيِّزِ في الجماعةِ الإنسانية، وأشارَ إلَى نَبْذِهِم وإهانَتِهم وطَرْحِهم والاسْتِخافِ بِهم وبأفعالهم الشائنةِ[1].

بلاغةُ استعمالِ أداةِ النَّفي ﴿لَمْ﴾ دونَ (لَمّا):

أداةُ (لم) تُستعمَل في نفي ما لا يُرجى وقوعه، و(لمّا) لما يُرجى وقوعه

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ أداةَ النَّفْيِ ﴿لَمْ﴾ دونَ غَيرِها من أدَواتِ النَّفْيِ كـ(لَمّا)؛ وذلكَ لأنَّ من خصائصِ النَّفْيِ بـ(لمْ) أنَّها تقلبُ زَمَنَ المضارعِ ماضيًا، فهي حرفُ نَفْيٍ وجَزْمٍ وقَلْبٍ، والمنْفيُّ بها قَدْ يَكونُ مُنْقَطِعًا، وقدْ يَكونُ مُتَّصِلًا بالحالِ، وقدْ يَكونُ مُسْتَمِرًّا، في حين أنَّ المَنْفيَّ بـ(لَمّا) مُسْتَمِرُّ النَّفْيِ إلَى حينِ التَّكَلُّمِ، كَما أنَّ منفيَّ (لَمّا) لا يَكونُ إلّا قَريبًا مِنَ الحالِ، ولا يُشْتَرَطُ ذَلِكَ في منفيِّ (لَمْ)، فَقَدْ يَكونُ مَنْفيُّها قَريبًا أوْ بَعيدًا[2]، ولَمّا كانَ المُرادُ في هذا السّياقِ نَفْيَ إيمانِهم في الماضي، واستمرارَ نَفيهِ حتى الوقتِ الحاليِّ، معَ عَدَمِ تَوَقُّعِ إيمانِهم في القريبِ العاجلِ؛ كانَ استعمالُ ﴿لَمْ﴾ لِنَفْيِ إيمانِهم هوَ الأليقَ بالسياقِ، مع الإيماءِ إلى أنَّهم ممّا لا يُرجى إيمانهم في المستقبل، وبهذا يختلفُ الحكمُ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 143.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 9.

عليهم عن الحكم على الأعرابِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]؛ لأنَّه ممّا يُرجى تحقُّقُه.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

حُبوطُ العَمَلِ ناشِئٌ ومتسبِّبٌ عنْ عَدَمِ الإيمانِ

في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ جاءتِ الفاءُ سَبَبِيَّةً، فتسبَّبَ عنْ عَدَمِ إيمانِهم حُبوطُ عَمَلِهم؛ لأنَّ الأعمال لا تصِحُّ بدونِ الإيمان؛ لِأنَّها باطِلَةٌ مُنْذُ عُمِلَتْ؛ إذْ صِحَّتُها مَشْروطَةٌ بالإيمانِ والإخْلاصِ، وهم مُبْطِنونَ الكُفْرَ، وذَهَبَ بعْضُهم إلى أنَّها حَبِطتْ؛ لأنَّ اللّهَ سُبْحانَه لَمْ يَقْبَلْها، فَكانَتْ كالمُحْبَطَةِ، وعَلى الوَجْهَيْنِ فالمُرادُ بالأعْمالِ العِباداتُ المَأْمورُ بها، وجوِّزَ أنْ يَكونَ المُرادُ بها ما عَمِلوهُ نِفاقًا وتَصَنُّعًا، وإنْ لَمْ يَكُنْ عِبادَةً، والمَعْنى: فَأبْطَلَ ﷻ صُنْعَهم ونِفاقَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مُسْتَتْبِعًا لِمَنفَعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أصْلًا[1].

براعةُ استعمالِ مفردة الإحباطِ:

الإحباطُ بُطلانُ العملِ بعد أن كان مقبولًا في الظّاهر

في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بالإحباطِ دونَ مرادفات هذا اللفظ؛ وذلك لأنَّ الإحْباطَ هو جَعْلُ شَيْءٍ حابِطًا، فالهَمْزَةُ فيه لِلْجَعْلِ مِثْلَ الإذْهابِ، وحقيقةُ الحَبْط: فَسادُ ما يُرادُ بِهِ الصَّلاحُ والنَّفْعُ، ويُطْلَقُ مَجازًا عَلى إفْسادِ ما كانَ نافِعًا أوْ عَلى كَوْنِ الشَّيْءِ فاسِدًا، ويُظَنُّ أنَّهُ يَنْفَعُ، يُقالُ: حَبِطَ حَقُّ فُلانٍ؛ إذا بَطَلَ، والإطْلاقُ المَجازِيُّ وَرَدَ كَثيرًا في القُرْآنِ، فَإحْباطُ الأعْمالِ: إبْطالُ الاعْتِدادِ بالأعْمالِ المَقْصودِ بها القُرْبَةُ والمَظْنونِ بها أنَّها أعْمالٌ صالِحَةٌ لِمانِعٍ مَنَعَ مِنَ الاعْتِدادِ بها في الدّينِ[2]، والمرادُ بإحباطِ اللهِ لأعمالهم أنَّه أبْطَلَ أرْواحَها، فَصارَتْ أجْسادًا لا أرْواحَ لَها، فَلا نَفْعَ لَهم بِشَيْءٍ مِنها؛ لِأنَّها كانَتْ في الدُّنْيا صوَرًا مُجَرَّدَةً عَنِ الأرْواحِ الَّتي هي القُصودُ الصّالِحَةُ،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 298.

فَإنَّهم لا قَصْدَ لَهم بِها إلّا التَّوَصُّلُ إلى الأغْراضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وهَذا إعْلامٌ بِأنَّ مَن كانَتِ الدُّنْيا أكْبَرَ هَمِّهِ؛ فَهو غَيْرُ مُؤْمِنٍ[1].

نكتةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ الماضي:

إحباطُ الأعمالِ متحقِّقٌ بتحقُّقِ عدمِ الإيمان

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عنْ حُبوطِ أعمالِ المُنافِقينَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ باسْتِعْمالِ صيغَةِ المُضيِّ ﴿فَأَحْبَطَ﴾ دونَ صيغَةِ المضارعِ (يُحْبِطُ)، وذلكَ لإرادَةِ معْنَى التحقيقِ والثباتِ، أي: قدْ تَحَقَّقَ حُبوطُ أعمالِهم، وثَبَتَ عَدَمُ قَبولِها، وفيه تَخْويفٌ ووعيدٌ لهؤلاءِ المنافقينَ المُخادعينَ.

سِرُّ إسْنادِ الإحْباطِ إلَى لَفْظِ الجَلالَةِ:

أُسْنِدَ الإحباطُ لله إبرازًا لقُدْرَته، وتَذْكيرًا بنَصْره، وتأكيدًا لمقاصدِ السّورَةِ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإحباطِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ للهِ تعالى، على الرَّغْمِ مِن ورودِه مَرّاتٍ عديدةً مُسْنَدًا إلى الأعمالِ، فقد وردَ فِعلُ الحبوطِ والإحباطِ ست عشرةَ مرَّة في القرآنِ الكريمِ، أُسنِدَ للأعمالِ في اثني عشَرَ موضِعًا، وجاءَ الإسنادُ للهِ ﷻ في أربعةِ مواضعَ فحسب، منها هذا الموضع، وثلاثةٌ منها في سورةِ محمَّدٍ ﷺ، الَّتي هي صِنْوُ سورةِ الأحزابِ وقَرينَتها، ولعلَّ النَّظْمَ الحَكيمَ قد آثَرَ إسنادَ الحبوطِ لفِعْلِ اللهِ سُبْحانَه في هذا المَوضِعِ؛ إبْرازًا لقُدْرَته على كَشْفِ سرائرِ المُنافقينَ في أشدِّ لحظاتِ المؤمنينَ حرجًا، أي: تلكَ اللَّحَظاتُ الَّتي كادوا يُستأصَلونَ فيها، وتَذْكيرًا بأنَّه سُبحانَه كما أنَّه وحْدَه النّاصِرُ، فإنَّه سُبْحانَه هوَ مَنْ سَيُحبِطُ عَملَ هؤلاءِ المُخادِعينَ، وفيه كذلكَ مَزيدُ تأكيدٍ لمقاصدِ السّورَةِ الكريمةِ في حفْظِ جنابِ النُّبوَّةِ من أيِّ أذًى.

نكتةُ استعمالِ العمل دون الفعل:

قامَ المُنافقونَ بأعمالِهم عن قصدٍ في إيذاءِ المؤمنين

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بـ﴿أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ دونَ (أفْعالِهم)؛ إذِ الفِعْلُ هوَ التَّأْثيرُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 320.

مِنْ جِهَةِ مُؤَثِّرٍ، وهوَ عامٌّ لِما كانَ بِإجادَةٍ أوْ غَيْرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بِعِلْمٍ أوْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أوْ بِغَيْرِ قَصْدٍ، ولِما كانَ مِنَ الإنْسانِ والحَيَوانِ والجَماداتِ، وأمّا العَمَلُ؛ فَهوَ كُلُّ فِعْلٍ يَكونُ مِنَ الحَيَوانِ بِقَصْدٍ، فَهوَ أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ؛ لأنَّ الفِعلَ قَدْ يُنْسبُ إلَى الحَيَواناتِ الَّتي يَقَعُ مِنْها فِعْلٌ بِغَيْرِ قَصْدٍ، وقدْ يُنْسَبُ إلَى الجماداتِ، والعَمَلُ قَلَّما يُنْسَبُ إلى ذَلِكَ[1]، ولا يُقالُ العمل إلّا لِما كانَ عَنْ فِكْرٍ ورَوِيَّةٍ، ولا يَكونُ إلّا مِنَ الإنْسانِ مَصْحوبًا بِقَصْدٍ[2]، وعَلَى هذا فَإنَّ اسْتِعْمالَ مادَّةِ (العملِ) يوحي بِالرَّوِيَّةِ والقَصْدِ الأكيدِ، ولذا فقدْ آثَرَ البيانُ القرآنيُّ المُعْجِزُ كلمةَ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ دونَ كلمةِ (أفعالِهم)؛ لأنَّهُم قاموا بكلِّ ما أتوه عامِدينَ مُتَعَمِّدينَ، وكانوا حريصين على إتقانِ أعمالِهم في الظّاهر كي لا يُشَكَّ فيهم، ومع ذلك فقد أحبط اللّه أعمالَهم؛ لأنَّها لم تَقُمْ على ركنِها القويم.

دَلالةُ الإضافةِ وحذفِ الصفة في ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾:

تـأكـيـدُ نسبةِ الأعـمـالِ لَـهُـم، وانتفاءُ مَكْرِهم عن الله سُبْحانَه

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ الأعمالَ إلى الضَّميرِ (هُم) العائدِ إلى المُنافِقينَ، وذلكَ للتأكيد على نِسْبَةِ هذه الأعمالِ لَهُم، فلا مجالَ لَهُم لِكي يَتَنَصَّلوا مِنْ أفْعالِهم الشائنة وأعمالِهم الدَّنيئةِ، وحَذَفَ النَّظْمُ صِفَةَ الأعمالِ لِكي تشتملَ على كلِّ ما عَمِلوه.

نكتةُ حذفِ المتعلّقِ الزَّمانيِّ:

الأمـلُ في قبولِ التَّوبةِ لا يُسدُّ أمام أحدٍ

أطْلَقَ البيانُ القُرْآنيُّ الحبوطَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فَلَمْ يُقَيِّدْهُ بزمانٍ مُحَدَّدٍ، في حين أنَّ النَّظْمَ الحكيمَ قَيَّدَه في آياتٍ أُخْرى بِأنَّه في الدُّنْيا والآخِرَةِ، ولَعَلَّ في إطلاقِ النَّظْمِ للحبوطِ وعدَمِ تقييدِه بزمانٍ مُعَيَّنٍ إشارةً خفيَّةً لهؤلاءِ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عمل) و(فعل).
(2) أبو البقاء، الكليات، ص: 616.

المُنافقينَ كيْ يُحَقِّقوا معنى الإيمانِ في قُلوبِهم، فلا تُحبَطُ أعمالُهم في الآخرةِ، وفيهِ كذلكَ فتحٌ لبصيصِ أمَلٍ بقَبولِ تَوْبَتِهم؛ إنْ أحسنوا التَّوبةَ والإنابةَ للّهِ سُبْحانَه.

نكتةُ ذكرِ فعل (كان):

قدرةُ اللهِ تعالى كاملة مطلقة منذ الأزل

ذكرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ فِعْلَ (كان)، فلم يقل: (وهوَ يَسيرٌ عَلَى اللّهِ)؛ وذلك لِما في التَّعْبيرِ بهذا الفعلِ تَأْكيدٌ ومُبالَغَةٌ عَلَى قُدْرَتِه سُبْحانَه؛ ليَسْتَقِرَّ هذا المفْهومُ في عُقولِ المُنافقينَ خاصَّةً، والمُسْلِمينَ وسائرِ الخلقِ كُلِّهم عامَّةً، حتّى يتيقَّنوا مِنْ طَلاقَةِ قُدْرَتِه سبْحانَه مُنذُ الأزَلِ.

دلالةُ استعمالِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استحقاقُ المُنافِقينَ لإحباطِ أعمالِهم أمرٌ ظاهرٌ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ باسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العائِدِ على الإحباطِ؛ للدِّلالةِ على هوانِ تلكَ الأعْمالِ على اللّهِ ﷻ، و"اسْمُ الإشارَةِ يوضِّحُ المُشارَ إلَيْه أكْمَلَ تَوْضيحٍ، ويُبْرِزُهُ في صورَةٍ حِسّيَّةٍ، تَقَعُ عَلَيْها الإشارَةُ، وتَقولُ فيها كأنَّكَ تراهُ، وذلكَ لأهَمِّيَّةِ الإحْباطِ وكَمالِ العِنايةِ به"[1].

نكتةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

اللهُ غالبٌ على كلِّ شيءٍ، وإحباطُ أعْمالِهم يسيرٌ إلى جِوارِ قُدْرَتِه

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ الَّذي يفيدُ الاستعلاءَ المجازيَّ؛ لبيانِ أنَّ اللّهَ سُبْحانَه غالبٌ على كُلِّ شيءٍ، وأنَّ إحباطَ أعْمالِهم أمرٌ لا حُسبانَ له إلى جِوارِ قُدْرَتِه المُطْلَقَةِ وإرادتِه الشّامِلَة.

نكتةُ إظهارِ لَفْظِ الجَلالَةِ:

إظْهارُ الاسْمِ الجَليلِ إشْعارٌ بالهَيْمَنَةِ للهِ القادِرِ الغالِبِ

أظْهَرَ النَّظْمُ الحكيمُ لفظَ الجلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دون إضمارِه، مع تقدُّمِ ذكرِه في قولِه تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وذَلِكَ للإشْعارِ بالهَيْمَنَةِ والسَّيْطَرَةِ، ولَمْ يَخْلُ ذِكْرُ لَفْظِ الجلالةِ مِنْ دلالَةٍ عَلَى هذه

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 145.

المعاني، والمَقامُ مَقامُ ذِكْرِ إحْباطٍ لأعْمالِ فئةٍ باغيةٍ، تُعادي اللّٰهَ ورسولَهُ ﷺ والمؤمنينَ، والإحباطُ لا يكونُ إلّا مِنْ إلَهٍ قادرٍ غالبٍ[1].

دَلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجرورِ على الخبرِ:

إبطالُ الأعمالِ من خصائص الألوهيَّة لا من أحكام البشر

قَدَّمَ البيانُ القُرْآنيُّ شِبْهَ الجُمْلَةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ على خبرِ (كان)؛ إيذانًا بالاخْتِصاصِ، وإفادَةً لِحصْرِ القُدْرَةِ المُطْلَقَةِ عَلَى فعلِ أيِّ شيءٍ فيهِ وحدَه سُبْحانَه، "بما لَهُ مِن صِفاتِ العَظَمَةِ الَّتي تَخْشَعُ لَها الأصْواتُ، وتَخْرَسُ الألْسُنُ الذَّرِباتُ"[2]، وفيه أنَّه ليس لأحدٍ أن يحكمَ على بطلانِ عملِ أحدٍ إلّا بإذن اللّٰه تعالى.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿يَسِيرًا﴾:

اليُسْرُ سُهولَةٌ مع عِزَّةٍ وتمكُّن

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ اليسيرِ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ دونَ الألفاظِ المرادفةِ؛ لأنَّ اليُسْرَ توصَفُ بِهِ الأحْوالُ والأعْمالُ، وفي إيثارِ هذا اللَّفْظِ على غيرِه إشارةٌ إلى أنَّ هؤلاءِ - لمّا كانَ مِنْهُم ما كانَ - لمْ تكنْ لَهُم مَنْزِلَةٌ عِنْدَه سُبْحانَه، فكانَ إحْباطُ أعْمالِهم وبِرِّهِم يَسيرًا عليه، لهَوانِهم عنده سبحانه[3].

وتَخْصيصُ يُسْرِ إحباطِ هَذِهِ الأعمالِ بالذِّكْرِ مَعَ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ عليه تَعالى يَسيرٌ؛ لِبَيانِ اسْتِحقاقِ أعْمالِهم للإحْباطِ المَذْكورِ لِكَمالِ تَعاضُدِ الحِكَمِ المُقْتَضيَةِ لَهُ، وعَدَمِ مانِعٍ عَنْهُ بِالكُلِّيَّةِ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اليَسيرُ والهَيِّنُ:

اليُسْرُ سُهولَةٌ مع عِزَّةٍ، والهَيِّنُ أمرٌ سَهلٌ مع إيحاءٍ بالخِفَّةِ

اليُسْرُ توصَفُ بِهِ الأحْوالُ والأعْمالُ، والسُّهولَةُ توصَفُ بِها الأعمالُ والأشياءُ، تَقولُ: نَحْنُ في حالِ يُسْرٍ، ولا يُقالُ: حالٌ سَهْلٌ، ولِذَلِكَ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 144.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 320.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.

يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالسَّعَةِ والغِنَى والرَّخاءِ، وأيْسَرتَ؛ إذا صِرتَ ذا سَعَةٍ وغِنًى، وتقول: سَهُلَ، ويَسُرَ عَلَيَّ القيامُ بِهَذا العَمَلِ، ويَأْتي اليُسْرُ بِمَعْنَى القِلَّة؛ لأنَّ شَأْنَ الشَّيْءِ القَليلِ أنْ يَكونَ يَسيرًا تَحَمُّلُهُ، والهَونُ توصَفُ بِهِ الأعْمالُ والعَوارِضُ الَّتي تَعْرِضُ لِحَياةِ الإنسانِ، فَإذا وُصِفَتْ بِهِ الأعمالُ؛ فَهوَ كالسُّهولةِ، إلّا أنَّكَ لَوْ قُلتَ: هذا العملُ عَلَيَّ هَيِّنٌ، فَقَدْ عَدَدْتَهُ سَهْلًا، وجعلْتَه لا شيءَ بجانِبِ قوَّتِكَ واسْتِطاعَتِكَ؛ وذَلِكَ لأنَّ في لفظِ هيِّنٍ نوعًا من الاستخفافِ[1].

(1) الراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، وتاج العروس: (سهل) و(هون) و(يسر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»